ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَقْفُ(١) مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾

ينتقل الحق سبحانه وتعالى إلى قضية أخرى تُنظِّم حركة الحياة ، والإنسان الذى استخلفه الله فى الأرض ووهَبه الحياة وأمدَّه بالطاقات وبمُقوِّمات الحياة وضرورياتها .

وبعد أنْ تكفَّل له بالضروريات ، دلَّه على الترقِّى فى الحياة بالبحث والفكر ، واستخدام العقل المخلوق لله والمادة المخلوقة لله بالطاقات المخلوقة لله ، فيُرقِّى ويُثرى حياته ومجتمعه .

وحركة الترقِّى والإثراء هذه لا تتمّ إلا على قضية ثابتة واضحة ، فإذا تحركتَ فى الحياة بناءً علي هذه القضية فسوف تصل إلى النتيجة المرجوّة .

فمثلاً ، الطالب الذى يرغَب فى دخول كلية الحقوق مثلاً ، لديه قضية واضحة مجزوم بها ، فعندما يلتحق بالحقوق يجتهد ، ويصل من خلالها إلى طموحاته ؛ لأنه سار على ضَوْء قضية اقتنع بها .

إذن : لا بُدَّ أن تُبْنَى حركة الحياة على قضايا ثابتة ، هذه القضايا الثابتة تجعل المتحرِّك فى أىِّ حركة واثقاً من أن حركته ستُؤدِّى إلى النتيجة المطلوبة ، فلو أردتَ مثلاً الذهاب إلى الإسكندرية أو إلى

---

(١) أى : لا تتبع من العقائد ما ليس لك به علم ، ولا من الآراء ولا من الأحداث ما لا تعرف له دليلاً ، ولا تسترسل فى الحديث عما ليس لك به علم . [القاموس القويم ٢/١٢٨] .

أسوان ، فلن تتحرَّك إلا إذا تأكدتَ أن هذا الطريق هو الموصِّل إلى غايتك ، وكذلك حركة الحياة لا يمكن أنْ تتمَّ إلا بناءً على قضايا حقيقية مضبوطة في الكون ، وهذا ما نسميه (العلم) .

وقد سبق أن أوضحنا معنى القضية ، وأنها المقولة التي يُحكَم على قائلها بالصدق أو بالكذب ، كأن نقول : الأرض كُروية ، أو الشمس مضيئة ، أو القمر منير ، وهذه القضايا تعطيني قضية علمية مجزوماً بها وواقعة ، ويمكن أنْ نُدلِّل عليها . وهذا هو العلم .

أما الجهل فأنْ تجزم بقضية ليست واقعية فهي قضية كاذبة ، وليس الجهل عدم العلم كما يعتقد البعض ؛ لأن عدم العلم أمية ، والأميّ ليس عنده قضية لا صادقة ولا كاذبة .

لذلك تجد الأميَّ أطوعَ في التعلم من الجاهل ؛ لأن الأمي بمجرد أنْ تُعلِّمه قضية ما يأخذها ويتعلمها ، أما الجاهل فيلزمك أولاً أن تُخرِج من ذهنه القضية المخالفة ، ثم تُعلِّمه القضية الصادقة .

وقضايا الحياة يمكن أنْ تُقسَّم إلى قسمين :

قضايا تختلف فيها الأهواء .

وقضايا تتفق فيها الأهواء .

فالقضايا التي تختلف فيها الأهواء : هي القضية التي يخدم بها كل قائل لها فكرةً عنده فقط ، وإنْ كانت ضارة بغيره ، فما دام الأمر قائماً على الأهواء فلا بُدَّ أنْ تختلفَ ، فكُلٌّ له هواه الخاص ، فلو أن لكل واحد قضية ما التقينا على شيء أبداً .

وصدق الحق تبارك وتعالى حين قال : ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَـٰوَاتُ وَالْأَرْضُ .. (٧١) ﴾ [المؤمنون]

إذن : فما المخرج من هذا الاختلاف والتباين ؟ المخرَج أن يخرج كل واحد منّا من هوى نفسه أولاً ، ثم نرد القضية التى اختلفتْ فيها أهواؤنا إلى مَنْ لا هوى له .

وربُّكَ سبحانه وتعالى هو وحده الذى لا هَوى له ، ونحن جميعاً خَلْقه ، وكلنا عنده سواء ، ليس منا مَنْ بينه وبين الله نسب أو قرابة ، فشرع الله واحد للجميع ، ولا غضاضة فالكل خاضع لهذا الشرع مُتّبع له ؛ لأنه شَرْع الخالق سبحانه لا شَرْع أحد من الناس .

لذلك اشتهر قولهم : « اللى الشرع يقطع صباعه مَيْخُرش دم » . فأنا لم أخضع لك ، وأنت لم تخضع لى ، بل الجميع خاضع لله تعالى مُنصاَع لأمره . إذن : اتركوا قضايا الأهواء لله تعالى يُشرِّعها لكم ، لكى ترتاحوا من تسلُّط بعضكم على بعض .

أما القضايا التى تتفق فيها الأهواء فهى القضايا المادية القائمة على المادة الصَّماء التى لا تُجامل أحداً على حساب أحد ، ولا مانعَ أن تتبعوا الآخرين فيها ؛ لأنكم سوف تلتقون عليها قَهْراً ورَغْماً عنكم ، فالمعمل الذى تدخله لتجرى التجارب التى توصلك لقضية ما مادية أو كيماوية معمل محايد لا يجامل أحداً .

وقد سبق أن قلنا : إن الكهرباء أو الكيمياء ليس فيها روسى وأمريكى ؛ لأن هذه أشياء مادية لا خلافَ عليها ، أما الذى جعل المعسكر الشرقى يختلف والمعسكر الغربى هى القضايا الأهوائية ، فهذا شيوعى ، وهذا رأسمالى .

لذلك ، فالنبى ﷺ وضع بنفسه هذا المبدأ فى الوجود الإيمانى حينما رأى الناس يُؤبِّرون النخل ، فأشار عليهم بعدم تأبيره[١] ، فأطاعوه ولم يؤبروا النخل فى هذا العام ، وكانت النتيجة أن شاص النخل ولم يثمر ، وأثبتتْ التجربة الطبيعية أن ما أشار به رسول الله ﷺ ليس صواباً .

يأتى هذا ممَّنْ ؟ من محمد بن عبد الله نبى الله ورسوله ، الذى يحرص على أنْ تأتى كل قضاياه صادقة صائبة ، وما كان منه إلا أن قال : « أنتم أعلم بشئون دنياكم »[٢] .

ليضع بذلك أُسْوة لعلماء الدين ألاَّ يضعوا أنوفهم فى قضايا الماديات ، وقد قال الحق تبارك وتعالى : ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ.. ⟨٦٠⟩﴾ [البقرة]

ويقول ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به »[٣] .

فإنْ أردتَ أنْ تتحرَّك فى الحياة حركة سليمة مجدية ، وحركة متساندة مع إخوانك غير متناقضة ؛ فالحق سبحانه يقول : ﴿لا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ .. ⟨٣٦⟩﴾ [الإسراء] لكى تسير فى حركة الحياة على هُدىً وبصيرة .

---

(١) تأبير النخيل : تلقيحه وإصلاحه . [لسان العرب ـ مادة : أبر] .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٣٦٢) من حديث رافع بن خديج أنه قال حين أسقطت النخل ثمرها : « إنما أنا بشر ، إذا أمرتكم بشىء من دينكم فخذوا به ، وإذا أمرتكم بشىء من رأيى فإنما أنا بشر » . وفى حديث أنس (٢٣٦٣) : « أنتم أعلم بأمر دنياكم » .

(٣) أخرجه ابن أبى عاصم فى كتاب « السنة » (١٢/١) من حديث عبد الله بن عمرو ، وأورده ابن رجب الحنبلى فى « جامع العلوم والحكم » (ص٤٦٠) وضعَّفه .

﴿ لاَ تَقْفُ ﴾ أى : لا تتبع ولا تتدخل فيما لا عِلْم لك به ، كمَنْ يدَّعى مثلاً العلم بإصلاح التليفزيون وهو لا يعلم ، فربما أفسد أكثر مما يُصلح .

ومن هنا قال أهل الفقه : مَنْ قال لا أدرى فقد أفتى ؛ لأنه بإعلان عدم معرفته صرف السائل إلى مَنْ يعلم ، أما لو أجاب خطأ ، فسوف يترتَّب على إجابته مَا لا تُحمد عُقْباه ، والذى يسلك هذا المسلك فى حياته تكون حركته فى الحياة حركة فاشلة .

والفعل ﴿ يَقفُو ﴾ مأخوذ من القفا وهو المؤخرة ، وقد قال تعالى فى آية أخرى : ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا .. (٢٧)﴾[الحديد] أى : اتبعناهم . ويقفو أثره أى : يسير خَلْفه .

وحينما نصح أحدهم رجلاً يريد أنْ يتزوج قال له[1] : لا تتخذها حنَّانة ، ولا منَّانة ، ولا عُشْبة الدار ، ولا كَبَّة القفا .

فالحنانة التى لها ولد من غيرك يُذكِّرها دائماً بأبيه فتحنّ إليه ، والمنَّانة التى لديها مال تَمنُّ به عليك ، وعُشْبة الدار هى المرأة الحسناء فى المنبَتِ السوء والمستنقع القذر ، وكبَّة القفا هى التى لا تعيب الإنسان فى حضوره ، وتعيبه وتذمه فى غيبته .

والعلم هنا يُراد به العلم المطلق ؛ لأن الكثير من الناس كان يعتقد أن العلم يعنى العلم الدينى فقط ، لكن العلم هو كل ما يُثرى حركة الحياة ، والعلم علمان :

– علم دينى ، وهو الذى يقضى على الأهواء ، ويُوحِّدها إلى هوىً واحد هو الهَوى الإيمانى .

---

(١) أورده ابن منظور فى لسان العرب ـ مادة : حنن ، عشب ، من وصية أب لابنه أراد الزواج .

وهذا العلم يتولاّه الخالق سبحانه ، وليس لنا دَخْل فيه ؛ لأن الصانع أدْرى بصنعته ، وهو الذى يضع لها قانون صيانتها ؛ لأنه يعلم مَا يصلحها ومَا يفسدها .

وكما أنك لا تذهب إلى الجزار ليضع لك قانون صيانة التلفاز مثلاً ؛ كذلك لا تطلب قانون صيانة الإنسان إلا من خالقه عز وجل :
﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ١٤﴾ [الملك]

وهذا النوع من العلم قال الله تعالى عنه : ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا .. ٧﴾ [الحشر]

- فليس لنا أنْ نتدخَّلَ فيه ، أو نزيد عليه ؛ لأنه منهج الله الذى جاء بـ « افعل ولا تفعل » ، وهو منهج لا يقبل الزيادة أو التعديل ، فما كان فيه أمر ونهى فعليك الالتزام به ، وإلا لو خرجت عن هذا الإطار الذى رسمه لك ربك وخالقك فسوف تحدث فى الكون فساداً بترك الأمر أو بإتيان النهى . أما الأمور التى تركها الخالق سبحانه ولم يرد فى شأنها أمر أو نهى فأنت حر فيها ، تفعل أو لا تفعل .

والمتأمل فى شرع الخالق سبحانه يجد أمور التكليف بافعل ولا تفعل قليلة إذا ما قيست بالأمور التى ترك لك الحرية فيها ، إذن : فدع لربك وخالقك والأعلم بك مجالاً يحكم من خلاله حياتك وينظمها لك ، ألا يجدر بنا ونحن عباده وصنعته أن نُحكّمه فى أمور ديننا ، ونُخرِج أنوفنا مما اختص به سبحانه ؟

- أما النوع الآخر من العلم ، فهو العلم المادى التجريبى الذى لا يخضع للأهواء ، فقد جعله الخالق سبحانه مجالاً للبحث والتسابق ،

ومضماراً يجرى فيه الجميع ؛ لأنهم فى النهاية سيلتقون فيه قَهْراً ورَغْماً عنهم . وقد أعطانا الحق سبحانه وتعالى مثالاً لهذا النوع من العلم ، فقال تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ .. (٢٨) ﴾ [فاطر]

فذكر الحق سبحانه أجناس الوجود كلها : الإنسان ، والحيوان ، والنبات ، والجماد . ثم ختم ذلك بقوله : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ .. (٢٨) ﴾ [فاطر]

فهذه ظواهر الكون ، ارْبَع فيها كما شئت بحثاً ودراسة ، وإنْ أحسنتَ الإمعان فيها فسوف تُوصلك إلى ظواهر أخرى تُثرى حياتك وتُرقّيها ؛ فالذى اكتشف عصر البخار ، والذى اكتشف العجلة والكهرباء والجاذبية وغيرها لم يخلق جديداً فى كَوْن الله ، إنما أحسن النظر والتأمّل فتوصّل إلى ما يُريح المجتمع ويُسعده .

لذلك ، فالحق سبحانه وتعالى يُحذّرنا أن نمرّ على ظواهر الكون فى إعراض وغفلة ودون تمعُّن فيها : ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) ﴾ [يوسف]

والذين عبَّروا عن هذه الإنجازات العلمية بكلمة (الاكتشافات) كانوا أمناء فى التعبير عن الواقع الفعلى ، فهم لم يخلقوا جديداً فى الكون ، فكلُّ هذه الأشياء موجودة ، والفضل لهم فى الاهتداء إليها

واكتشافها ، ومن هنا فكلمة (اختراع) ليست دقيقة فى التعبير عن هذه الاكتشافات .

فإذا كان الحق سبحانه نهانا عن تتبُّع ما ليس لنا به علم ، فماذا نتبع ؟ نتبع ما نعلمه وما نتيقن منه من علوم ، فإنْ كانت فى الدين تركناها للخالق سبحانه يُقنِّنها لنا ، وإنْ كانت فى أمور الدنيا أعملنا فيها عقولنا بما ينفعنا ويُثْرِى حياتنا ؛ لذلك تكلّم الحق سبحانه بعد ذلك عن وسائل إدراك العلم ، فقال : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَـٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً (٣٦) ﴾ [الإسراء]

وما دام الحق سبحانه قد نهانا عن تتبع مَا لا نعلم ، وأمرنا أن نسير على ضوء ما نعلم من العلم اليقينى فلا بُدَّ أنْ يسأل المرءُ عن وسائل العلم هذه ، لأنه لولا وسائل الإدراك هذه ما علم الإنسانُ شيئاً ، وهذا واضح فى قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨) ﴾ [النحل]

وهل يشكر الإنسان إلا على حصيلة أخذها ؟ هذه الحصيلة هى العلم .

وهذه الحواس تُؤدِّى عملها فى الإنسان بمجرد أن تنشأ فيه ، وبعد أنْ يخرجَ إلى الحياة ، والبعض يظنّ أن الطفل الصغير لا يفهم إلا عندما يكبر ويستطيع الكلام والتفاهم مع الآخرين ، والحقيقة أن الطفل يدرك ويَعِى من الأيام الأولى لولادته .

ولذلك ، فإن علماء وظائف الأعضاء يقولون : إن الطفل يُولَد

ولديْه ملكَاتٌ إدراكيـة سمّاها العلماء احتـياطاً « الحواس الخمس الظاهرة » ، وقد كان احتياطهم فى محله لأنهم اكتشفوا بعد ذلك حواس أخرى ، مثل حاسة العضل مثلاً التى نُميِّز بها بين الخفيف والثقيل .

وإنْ كانت حواس الإنسان كثيرة فإن أهمها : السمع والبصر ، وقد وردت فى القرآن بهذا الترتيب ، السمع أولاً ، ثم البصر لأن السمع يسبق البصر ، فالإنسان بمجرد أنْ يُولَد تعمل عنده حاسَّة السمع ، أما البصر فإنه يتخلَّف عن السمع لعدة أيام من الولادة ، إذن : فهو أسبق فى أداء مهمته ، هذه واحدة .

الأخرى : أن السمع هو الحاسَّة الوحيدة التى تُؤدِّى مهمتها حتى حال النوم ، وفى هذا حكمة بالغة للخالق سبحانه ، فبالسمع يتم الاستدعاء من النوم .

وقد أعطانا الخالق سبحانه صورة واضحة لهذه المسألة فى قصة أهل الكهف ، فلما أراد سبحانه أن يناموا هذه السنين الطوال ضرب على آذانهم وعطّل حاسة السمع لديهم ، وإلاَّ لَمَا تمكّنوا من النوم الطويل ، ولأزعجتهم الأصوات من خارج الكهف . فقال تعالى :
﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١) ﴾ [الكهف]

ولم يسبق البصر السمع إلا فى آية واحدة فى كتاب الله تعالى وهى : ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا .. (١٢) ﴾ [السجدة]

والحديث هنا ليس عن الدنيا ، بل عن الآخرة ، حيث يفزع الناس من هَوْلها فيقولون : ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا .. (١٢) ﴾ [السجدة] لأنهم فى الآخرة أبصروا قبل أن يسمعوا .

فالسمع أوّل الحواس ، وهو أهمها فى إدراك المعلومات ، حتى الذى يأخذ معلوماته بالقراءة سمع قبل أن يقرأ ، فتعلّم أولاً بالسماع ألف باء ، فالسمع أولاً فى التعلُّم ، ثم يأتى دَوْر البصر .

والذى يتتبع الآيات التى ورد فيها السمع والبصر سيجدها جاءت بإفراد السمع وجمع البصر ، مثل قوله سبحانه : ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ .. (٩)﴾ [السجدة]

إلا فى هذه الآية التى نحن بصدد الحديث عنها جاءت : ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَـٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً (٣٦)﴾ [الإسراء]

لماذا ؟ وما الحكمة من إفرادها هنا بالذات ؟

وقبل أن نُوضِّح الحكمة هنا يجب أن نعى أن المتكلم هو الله تعالى ، وما دام المتكلم هو الله فلا بُدَّ أن تجد كل كلمة دقيقة فى موضعها ، بليغة فى سياقها .

فالسمع جاء بصيغة الإفراد ؛ لأنه لا يتعدد فيه المسموع بالنسبة للسامع ، فإذا حدث الآن صوت نسمعه جميعاً ، فهو واحد فى جميع الآذان .

أما البصر فهو خلاف ذلك ؛ لأن أمامنا الآن مرائىَ متعددة ومناظر مختلفة ، فأنت ترى شيئاً ، وأنا أرى شيئاً آخر ، فَوحْدة السمع لا تنطبق على البصر ؛ لذلك أفرد السمع وجاء البصر بصيغة الجمع .

أما فى قوله تعالى : ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ .. (٣٦)﴾ [الإسراء] فقد

ورد البصر هنا مفرداً ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يتحدث عن المسئولية ، مسئولية كل إنسان عن سَمْعه وبصره ، والمسئولية أمام الحق سبحانه وتعالى فردية لا يُسأل أحد عن أحد ، بل يُسأل عن نفسه فحَسْب ، فناسب ذلك أنْ يقول : السمع والبصر ؛ لأنه سيُسأل عن بصر واحد هو بصره .

فالإنسان - إذن - مسئول عن سَمْعه وبصره وفؤاده من حيث التلقِّي ، تلقِّي القضايا العلمية التي سنسير عليها في حركة حياتنا ، وكذلك من حيث الإعطاء ، فكأن الحق سبحانه وتعالى يقول للأذن : لا تسمعي إلا خيراً ، ولا تتلقَّ إلا طيّباً ، ويا مُربِّي النشء لا تُسْمعه إلا ما يدعو إلى فضيلة ، ولا تعط لأذنه إلا ما يصلح حياته ويُثريها .

ويقول للعين : لا ترَىْ إلا الحلال الذي لا يهيج غرائزك إلى الشهوات ، ويا مُربِّي النشء احجب عنه ما يثير الغرائز ويفسد الحياة ؛ وبذلك نربي في المجتمع المعلومات الصحيحة التي تنبني عليها حركة حياته .

وما دُمْتَ مسئولاً عن أعضائك هذه المسئولية ، ومحاسباً عنها ، فإياك أنْ تقولَ : سمعت وأنت لم تسمع ، وإياك أنْ تقولَ : رأيت وأنت لم ترَ ، إياك أنْ تتعرَّض لشهادة تُدلي فيها بغير ما تعلم وتتيقن . أو تتبنَّى قضية خاطئة وتبني عليها حركة حياتك ؛ لأن المبنيّ على مقدمات فاسدة ينتج عنه نتائج فاسدة ، وما بُني على مقدمات صحيحة أنتج النتيجة الصحيحة .

وجماع هذا كله فى قوله تعالى : ﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ.. (٣٦)﴾ [الإسراء] لماذا ؟ لأنك محاسب على علمك هذا وعلى وسائل إدراكه لديك : ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَـٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً (٣٦)﴾ [الإسراء]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا (٣٧)﴾

ما زالت الآيات تسير فى خطٍّ واحد ، وترسم لنا طريق التوازن الاجتماعى فى مجتمع المسلمين ، فالمجتمع المتوازن يصدر فى حركته عن إله واحد ، هو صاحب الكلمة العليا وصاحب التشريع .

والمتتبع لهذه الآيات يجد بها منهجاً قويماً لبناء مجتمع متماسك ومتوازن ، يبدأ بقوله تعالى : ﴿لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَـٰهًا آخَرَ .. (٢٢)﴾ [الإسراء]

وهذه قضية القمة التى لا تنتظم الأمور إلا فى ظلّها ، ثم قسّم المجتمع إلى طبقات ، فأوصى بالطبقة الكبيرة التى أدّت مهمتها فى الحياة ، وحان وقت إكرامها وردّ الجميل لها ، فأوصى بالوالدين وأمر ببرّهما .

ثم توجّه إلى الطبقة الصغيرة التى تحتاج إلى رعاية وعناية ، فأوصى بالأولاد ، ونهى عن قتلهم خَوْفَ الفقر والعَوز ، وخصّ بالوصية اليتيم ؛ لأنه ضعيف يحتاج إلى مزيد من الرعاية والعناية والحنو والحنان .

ثم تكلم عن المال ، وهو قوام الحياة ، واختار فيه الاعتدال والتوسُّط ، ونهى عن طرفَيْه : الإسراف والإمساك . ثم نهى عن الفاحشة ، وخصَّ الزنا الذى يُلوِّث الأعراض ويُفسد النسل ، ونهى عن القتل وسَفْك الدماء .

ثم تحدث عمَّا يحفظ للإنسان ماله ، ويحمى تعبه ومجهوداته ، فأمر بتوفية الكيل والميزان ، ونهى عن الغش فيهما والتلاعب بهما ، ثم حَثَّ الإنسان على الأمانة العلمية ، حتى لا يقول بما لا يعلم ، وحتى لا يبنى حياته على نظريات خاطئة .

ألم تَرَ أنه منهج وأسلوب حياة يضمن سلامة المجتمع ، وسلامة المجتمع ناشئة من سلامة حركة الإنسان فيه ، إذن : الإنسان هو مدار هذه الحركة الخلافية فى الأرض ؛ لذلك يريد الحق سبحانه وتعالى أنْ يضع له توازناً اجتماعياً .

وأول شىء فى هذا التوازن الاجتماعى أننا جميعاً عند الله سواء ، وكلنا عبيده ، وليس منا مَنْ بينه وبين الله قرابة أو نَسَب ، فالجميع عند الله عبيد كأسنان المشط[1] ، لا فَرْق بينهم إلا بالتقوى والعمل الصالح .

وإنْ تفاوتت أقدارنا فى الحياة فهو تفاوت ظاهرى شكلى ؛ لأنك حينما تنظر إلى هذا التفاوت لا تنظر إليه من زاوية واحدة فتقول مثلاً : هذا غنى ، وهذا فقير .

---

(١) أخرج ابن عدى فى الكامل (٣/٢٤٨) من حديث أنس بن مالك قال : قال ﷺ : « الناس سواء كأسنان المشط ، وإنما يتفاضلون بالعافية ، والمرء كثير بأخيه يرفده ويحمله ، ولا خير فى صحبة من لا يرى لك مثل ما ترى له » وفيه أبو داود النخعى ، قال ابن عدى : اجتمعوا على أنه يضع الحديث . وعزاه العجلونى فى كشف الخفاء (٢/٤٥١) للديلمى عن أنس ، وعن سهل بن سعد .

ومعظم الناس يهتمون بهذه الناحية من التفاوت ، ويَدَعُون غيرها من النواحى الأخرى ، وهذا لا يصح ، بل انظر إلى الجوانب الأخرى فى حياة الإنسان ، وإلى الزوايا المختلفة فى النفس الإنسانية ، ولو سلكتَ هذا المسلك فسوف تجد أن مجموع كل إنسان يساوى مجموع كل إنسان ، وأن الحصيلة واحدة ، وصدق الله العظيم القائل : ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ .. ⟨١٣⟩﴾ [الحجرات]

وما دام المجتمع الإيمانى على هذه الصورة فلا يصح لأحد أنْ يرفعَ رأسه فى المجتمع ليعطى لنفسه قداسةً أو منزلة فوق منزلة الآخرين ، فقال تعالى : ﴿وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا .. ⟨٣٧⟩﴾ [الإسراء]

أى : فخراً واختيالاً ، أو بَطَراً وتعالياً ؛ لأن الذى يفخر بشىء ويختال به ، ويظن أنه أفضل من غيره ، يجب أن يضمن لنفسه بقاء مَا افتخر به ، بمعنى أن يكون ذاتياً فيه ، لا يذهب عنه ولا يفارقه ، لكن من حكمة الله سبحانه وتعالى أنْ جعل كل ما يمكن أن يفتخر به الإنسان هِبةً له ، وليست أصيلة فيه .

كل أمور الإنسان بداية من إيجاده من عدم إلى الإمداد من عُدم هى هبة يمكن أنْ تسترد فى يوم من الأيام ، وكيف الحال إذا تكبَّرْتَ بمالك ، ثم رآك الناس فقيراً ، أو تعاليت بقوتك ثم رآك الناس عليلاً ؟

إذن : فالتواضع والأدب اللَّيقُ بك ، والتكبُّر والتعالى لا يكون إلا للخالق سبحانه وتعالى ، فكيف تنازعه سبحانه صفة من صفاته ؟ وقد نهانا الحق سبحانه عن ذلك ؛ لأنه لا يستحق هذه الصفة إلا هو سبحانه وتعالى ، وكَوْنُ الكبرياء لله تعالى يعصمنا من الاتضاع للكبرياء الكاذب من غيرنا .

ومَنْ أحب أن يرى مساواة الخَلْق أمام الخالق سبحانه ، فلينظر إلى العبادات ، ففيها استطراق العبودية فى الناس ، فحينما يُنادَى للصلاة مثلاً ترى الجميع سواسية : الغنى والفقير ، والرئيس والمرؤوس ، الوزير مثلاً والخفير ، الكل راكع أو ساجد ، الكل خاضع لله مُتذلّل لله فقير لله ، الكل عبيد لله بعد أنْ خلعوا أقدارهم ، عندما خلعوا نعالهم ، ففى ساحة الرحمن يتساوى الجميع . وتتجلى لنا هذه المساواة بصورة أوضح فى مناسك الحج .

والأهم من هذا أن الرئيس أو الكبير لا يأنف ، ولا يرى غضاضة فى أن يراه مرؤوسه وهو فى هذا الموقف وفى هذا الخضوع والتذلُّل ، لماذا ؟ لأن الخضوع هنا والتذلُّل لله ، وهذا عين العِزَّة والشرف والكرامة .

ثم يقول تعالى : ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً (٣٧)﴾ [الإسراء]

فى هذه العبارة نلحظ إشارة توبيخ وتقريع ، كأن الحق سبحانه وتعالى يقول لهؤلاء المتكبرين ، ولأصحاب الكبرياء الكاذب : كيف تتكبرون وتسيرون فَخْراً وخُيلاء بشىء موهوب لكم غير ذاتى فيكم ؟

فأنتم بهذا التكبُّر والتعالى لن تخرقوا الأرض ، بل ستظل صلبة تتحداكم ، وهى أدْنى أجناس الوجود وتُداس بالأقدام ، وكذلك الجبال وهى أيضاً جماد ستظل أعلى منكم قامة ولن تطاولوها . والحق

سبحانه وتعالى يُوبِّخ عبده المؤمن المكرم لِيُبقِى له على التكريم فى :

﴿وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا .. ﴿٣٧﴾﴾ [الإسراء]

وحينما أراد الحق سبحانه وتعالى أن يُوبِّخ أهل التكبُّر الكاذب أتى بأدْنى أجناس الوجود بالأرض والجبال وهى جماد ؛ لكنه قد يسمو على الإنسان ويفضُل عليه .

والناظر لأجناس الكون : الجماد والنبات والحَيَوَان والإنسان ، يجد الإنسان ينتفع بكل هذه الأجناس ، فالجماد ينفع النبات ، والحيوان والنبات ينفع الحيوان والإنسان ، والحيوان ينفع الإنسان ، وهكذا جميع الأجناس مُسخَّرة فى خدمة الإنسان ، فما وظيفتك أنت أيها الإنسان ؟ ومَنْ تخدم ؟

لا بُدَّ أنْ يكون لك دَوْر فى الكون ووظيفة فى الحياة ، وإلا كانت الأرض والحجر أفضل منك ، فابحثْ لك عن مهمة فى الوجود .

وفى فلسفة الحج أمر عجيب ، فالجماد الذى هو أدْنى الأجناس نجد له مكانة ومنزلة ، فالكعبة حجر يطوف الناس من حوله ، وفى ركنها الحجر الأسعد الذى سَنَّ لنا رسول الله ﷺ تقبيله وهو حجر ، وعليه يتزاحم الناس ويتشرَّفون بتقبيله والتمسُّح به .

وهذا مظهر من مظاهر استطراق العبودية فى الكون ، فالإنسان المخدوم الأعلى لجميع الأجناس يرى الشرف والكرامة فى تقبيل حجر .

وكذلك النبات يحْرُم قطعه ، وإياك أن تمتدَّ يدك إليه ، وكذلك الحيوان يحرُم صَيْده ، فهذه الأشياء التى تخدمنى أتى الوقت الذى أخدمها وأُقدِّسها ، وجعلها الحق سبحانه وتعالى مرة فى العمر لنلمح

الأصل ، ولكى لا يغترَّ الإنسان بإنسانيته ، وليعلم أن العبودية لله تعالى تَسْرى فى الكون كله .

فإياك أيها الإنسان أن تخدش هذا الاستطراق العبودىّ فى الكون بمرح أو خُيَلاء أو تعالٍ .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ﴾

أى : كُلُّ ما تقدّم من وصايا وتوجيهات بداية من قوله تعالى : ﴿ لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَـٰهًا آخَرَ .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [الإسراء]

وهذه الأمور التى تقدَّمَتْ ، والتى تحفظ للمجتمع توازنه وسلامته فيها السيء وفيها الحسن ، والسيء هو المكروه من الله تعالى ، والله تعالى لا يكره إلا ما خالفَ منهج العبودية له سبحانه ، أما الإنسان فيكره ما يخالف هواه ، ولا يتفق ومزاجه .

وهذه الأوامر والنواهى التى تقدَّمتْ يقولون : إنها الوصايا العَشْر التى نزلت على موسى ـ عليه السلام ـ والمقصودة فى قوله تعالى : ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ[1] مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا .. ﴿١٤٥﴾ ﴾ [الأعراف]

ولذلك يقول الحق سبحانه :

(١) الألواح : جمع لَوْح ، وهو الذى يُكتب فيه . قال الزجاج : قيل فى التفسير أنهما كانا لوحيْن ، ويجوز فى اللغة أن يقال للوحين : ألواح . [لسان العرب ـ مادة : لوح] . قال ابن كثير فى تفسيره (٢/٢٤٦) : « قيل : كانت الألواح من جوهر ، وأن الله تعالى كتب له فيها مواعظ وأحكاماً مفصلة مبينة للحلال والحرام » .

﴿ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ ﴾

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أى : ما تقدَّم من الوصايا .

﴿ الحِكْمَة ﴾ هى : وَضْعُ الشىء فى مَوْضعه المؤدِّى للغاية منه ، لتظلَّ الحكمة سائدة فى المجتمع تحفظه من الخلل والحمْق والسَّفَه والفساد .

وقوله : ﴿وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَـهًا آخَرَ .. ﴿٣٩﴾﴾ [الإسراء]

لسائل أنْ يسأل : لماذا كرَّر هذا النهى ، وقد سبق أنْ ذُكِر فى استهلال المجموعة السابقة من الوصايا ؟

الحق سبحانه وتعالى وضع لنا المنهج السليم الذى يُنظِّم حياة المجتمع ، وقد بدأه بأن الإله واحد لا شريكَ له ، ثم عدَّل نظام المجتمع كله بطبقاته وطوائفه وأرْسى قواعد الطُّهْر والعفَّة ليحفظ سلامة النسل ، ودعا إلى تواضع الكُلِّ للكُلِّ .

فالحصيلة النهائية لهذه الوصايا أنْ يستقيم المجتمع ، ويسعد أفراده بفضل هذا المنهج الإلهى .

إذن : فإياك أنْ تجعلَ معه إلهاً آخر ، وكرَّر الحق سبحانه هذا النهى : ﴿وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَـهًا آخَرَ .. ﴿٣٩﴾﴾ [الإسراء]

لأنه قد يأتى على الناس وقتٌ يُحْسنون الظن بعقول بعض المفكرين ، فيأخذون بأقوالهم ويسيرون على مناهجهم ، ويُفضِّلونها

على منهج الحق تبارك وتعالى ، فيفتنون الناس عن قضايا دينهم الحق إلى قضايا أخرى يُوهِمون الناس أنها أفضل مما جاء به الدين .

إذن : لا يكفي أن تؤمن أولاً ، ولكن احذر أنْ يُزحزحك أحد عن دينك فلا تجعل مع الله إلهاً آخر يفتنك عن دينك ، فتكون النتيجة : ﴿ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا (٣٩) ﴾ [الإسراء]

﴿ مَلُوماً ﴾ : لأنك أتيتَ بما تُلاَم عليه ، ﴿ مَّدْحُوراً ﴾ : أي : مطروداً مُبْعَداً من رحمة الله ، وهذا الجزاء في الآخرة .

أما الذي لا يؤمن بها ، فلا بُدَّ لكي نستطيع العيش معه في الدنيا ، أن يُذيقه الله بعض العذاب ، ويُعجِّله له في الدنيا قبل عذاب الآخرة ، كما قال تعالى : ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا .. (١٢٤) ﴾ [طه] أي : في الدنيا .

وقد ذكر الحق سبحانه وتعالى في قصة ذي القرنين : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ[1] وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦) قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا (٨٧) ﴾ [الكهف]

فقوله : ﴿ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ.. (٨٧) ﴾ [الكهف] لأنه مُمكَّن في الأرض ، ومَنُوط به حِفْظ ميزان الحياة واستقامتها ، حتى عند الذين لا يُؤمنون

(١) أي : رأى الشمس في منظره تغرب في البحر المحيط ، وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله يراها كأنها تغرب فيه ، وهي لا تفارق الفلك الرابع الذي هي مثبتة فيه لا تفارقه . [تفسير ابن كثير ٣/١٠٢] .

بالآخرة ، وإلا فلو أخَّرْنا العذاب عن هؤلاء إلى الآخرة لأفسدوا على الناس حياتهم ، وعاثوا فى الأرض يُعربِدون ويُفسِدون .

ولذلك لا يموت ظلوم فى الكون حتى ينتقمَ الله منه ، ويذيقه عذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة ، ولا بُدَّ أنْ يراه المظلوم ليعلم أن عاقبة الظلم وخيمة ، فى حين أن المظلوم فى رعاية الله وتأييده ينصره بما يشاء من نعمه وفضله ، حتى إن الظالم لو علم بما أعدَّه الله للمظلوم لَضَنَّ عليه بالظلم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَفَأَصْفَٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾

لما جعل بعض المشركين لله ولداً ، فمنهم مَنْ قالوا : المسيح ابن الله ، ومنهم مَنْ قالوا : عزير ابن الله ، ومنهم مَنْ قالوا : الملائكة بنات الله . فوبَّخهم الله تعالى : كيف تجعلون للخالق سبحانه البنات ولكم البنينَ ، إنها قسمة جائرة ، كما قال الحق سبحانه فى آية أخرى: ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ[1] ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾ ﴾[النجم]

أى : قسمة جائرة ظالمة .

قوله : ﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ.. ﴿٤٠﴾ ﴾[الإسراء] أى : اصطفاكم واختار لكم البنين ، وأخذ لنفسه البنات ؟

---

(١) ضازه يضيزه : جار عليه . وضازه حقه : نقصه حقه ، وقسمة ضيزى : جائرة ظالمة . [القاموس القويم ١/٣٩٧] .

ويقول فى آية أخرى : ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا .. (١٥) ﴾ [الزخرف]

لذلك قال تعالى بعدها : ﴿ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيمًا (٤٠) ﴾ [الإسراء]

فوصف قولهم بأنه عظيم فى القُبْح والافتراء على الله ، كما قال فى آية أخرى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا[1] (٨٩) ﴾ [مريم]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَـٰذَا الْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤١) ﴾

﴿ صَرَّفْنَا ﴾ أى : حوّلنا الشىء من حال إلى حال ، ومنها قوله تعالى : ﴿ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ .. (١٦٤) ﴾ [البقرة]

يعنى : تغييرها من حال إلى حال ، فمرة : تراها سكْسكاً[2] عليلة هادئة ، ومرّة تجدها رُخَاءً أى : قوية ، ومرة : تجدها إعصاراً مدمراً . والرياح قد تكون لواقح تأتى بالخير والنماء ، وقد تكون عقيماً لا خير فيها . هذا هو المراد بالتصريف .

فمعنى : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَـٰذَا الْقُرْآنِ .. (٤١) ﴾ [الإسراء]

أى : صرف مسألة ادعاء اتخاذ الله الأبناء فى القرآن ، وعالجها فى كثير من المسائل ؛ لأنه أمر مهم عالجه القرآن علاجات متعددة فى مقامات مختلفة من سُوره ، فتكرر ذكْر هذه المسألة . والتّكرار قد يكون فى

(١) الإد والإدّة : العجب والأمر الفظيع العظيم والداهية . [لسان العرب ـ مادة : أدد] .
(٢) السكسكة : الضعف . [لسان العرب ـ مادة : سكك] والمقصود أنها ريح ضعيفة ذات نسيم عليل .

ذات الشيء ، وقد يكون باللَّف بالشيء ، كما في قوله تعالى : ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ⑬﴾ [الرحمن]

وقوله : ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُوراً ④١﴾ [الإسراء]

أى : بدلَ أنْ يذكروا ويعودوا إلى جَادَّة الصواب ازدادوا إعراضاً ونفوراً . ولنا أن نسأل : لماذا الإعراض والنفور منهم ؟

لأنهم أرادوا الاحتفاظ بالسلطة الزمنية التى كانت لهم قبل الإسلام ، ولكى نوضح المقصود بالسلطة الزمنية نقول :

لو درسنا تواريخ القوانين فى العالم نجد أن القانون الوضعىّ الذى وضعه البشر لم يَأْتِ أول الأمر ، بل جاء نتيجة تسلُّط الكهنة ، وكانوا هم أصحاب القانون يضعونَه باسم الدين ، ويلزمون الناس به ، ولكن لُوحِظ عليهم أنهم يحكمون فى قضية ما بحكم ، ثم بعد فترة يحكمون فى نفس القضية بحكم مخالف للأول ، فانصرف الناس عن أحكام الكهنة ، ووضعوا لأنفسهم هذه القوانين الوضعية ، وبذلك أصبح لهؤلاء ما يُسمَّى بالسلطة الزمنية .

وهذه السُّلْطة الزمنية هى التى منعتْ يهود المدينة من الإيمان بمحمد ﷺ ، وقد كانوا على علم ومعرفة بأوصافه وبرسالته وزمن بعثته ، وكانوا حينما يرونَ عُبَّاد الأصنام فى مكة يقولون لهم : سيأتى زمان يُبعث فيه نبى فى هذا البلد ، وسوف نتبعه ، ونقتلكم به قتل عاد وإرم ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ، وقد كانوا من قبل يستفتحون به على الذين كفروا .

وعن هذا يقول الحق سبحانه فى حق يهود المدينة : ﴿وَلَمَّا

جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩) ﴾

[البقرة]

لقد تنكَّر اليهود لرسالة محمد ﷺ ، مع أنهم على يقين من صدْقه ؛ لأن هذه الرسالة ستحرمهم هذه السلطة الزمنية ، وستقضى على السيادة العلمية والسيادة الاقتصادية والسيادة الحربية التى كانت لهم قبل الإسلام .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا (٤٢) ﴾

أى : لو كان مع الله آلهة أخرى لَطلبتْ هذه الآلهةُ طريقاً إلى ذى العرش .

وقد عالج الحق تبارك وتعالى هذه القضية فى قوله : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ .. (١٨) ﴾ [آل عمران]

وهذه قضية : إما أن تكون صادقة ، وإما أنْ تكونَ غير ذلك . فإنْ كانت صادقة فقد انتهتْ المسألة ، وإنْ كانت غير صادقة ، وهناك إله ثانٍ ، فأين هو ؟ لماذا لم نسمع به ؟ فإنْ كان موجوداً ، ولا يدرى ـ أو كان يدرى بهذه القضية ـ ولكنه تقاعس عن المواجهة ولم يعارض ، ففى كل الأحوال لا يستحق أن يكون إلهاً .

إذن : ما دام أن الله تعالى شهد لنفسه بالوحدانية ، ولم يَقُمْ له معارض فقد سلمتْ له هذه الدعوى .

وكلمة ﴿ ذِي الْعَرْشِ ﴾ لا تُقَال إلا لمَنْ استتبَّ له الأمر بعد عِراك وقتال ، فيُصنع له كرسى أو سرير يجلس عليه .

وابتغاء الطريق إلى ذى العرش ، إما ليواجهوه ويوقفوه عند حده ويبطلوا دعوته ، فإن غلبوا فقد أنتهت المسألة ، وإن غُلبوا فعلى الأقل يذهب كل إله بما خلق كما قال تعالى : ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَـٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ.. (٩١)﴾ [المؤمنون]

أو : يبتغون إليه سبيلاً ، ليكونوا من خَلْقه ومن عبيده ؛ لذلك يقول الحق سبحانه فى موضع آخر : ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ[1] الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ .. (١٧٢)﴾ [النساء]

ويقول : ﴿أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ .. (٥٧)﴾ [الإسراء]

فهؤلاء الذين أشركتموهم مع الله فقلْتم : المسيح ابن الله ، وعزير ابن الله ، والملائكة بنات الله ، كُلٌّ هؤلاء فقراء إلى الله يبتغون إليه الوسيلة ، حتى أقربهم إلى الله وهم الملائكة يبتغون إلى الله الوسيلة ، فغيرهم ـ إذن ـ أوْلَى .

---

(١) أى : لن يمتنع ولن يأنف ولن يكره ولن يستكبر عن أن يكون عبداً لله قائماً بواجب العبد نحو ربه . [القاموس القويم ٢/٢٨٧] .

وينزِّه الحق سبحانه نفسه ، فيقول :

﴿ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ ﴾

وقولـه : ﴿ سُبْحَـانَهُ ﴾ يعنى تنزيهـاً مطلقاً له تعـالى فى ذاته ، وفى صفاته ، وفى أفعاله ، فلله تعالى ذات ليست كذاتك ، وله صفات ليست كصفـاتك ، وله أفعال ليست كأفعـالك ؛ لأن الأشياء تختلف فى الوجود بحَسْب المُوجِد لها .

فمثلاً : لو بنى كُلٌّ من العمدة ، ومأمور المركز ، والمحافظ بيتاً ، فسوف يتـفاوت هذا البناء من واحد للآخر ، بحـسب قدرته ومكانته . وكـذلك لا بُدَّ من وجـــود هذا التـفـاوت بين إلـه ومـألوه ، وبين رَبٍّ ومربوب ، وبين عابد ومعبود .

إذن : كُلُّ الأشياء فى المتساوى تتفاوت بتفاوت الناس .

وقوله : ﴿ عُلُوًّا كَـبِـيراً ﴿٤٣﴾ ﴾[الإسراء] أى : تعالى الله وتنزَّه عَـمَّا يقول هؤلاء علواً كبيراً ؛ لأن الناس تتفاوت فى العلو .

ونلاحظ أن الحق سبحانه اختار (كبيراً) ولم يَقُلْ : أكبر . وهذا من قبيل استعمال اللفظ فى مـوضعه المناسب ؛ لأن كبيراً تعنى : أن كلّ ما سواه صغـير ، لكن أكبر تعنى أن ما دونه كبـير أى : مُشَارِك له فى الكِبَر .

لذلك نقول فى نداء الصـلاة : الله أكبر وهى صـفة له سبـحانه ، وليست من أسـمائه ؛ ذلك لأن من أعمال الحـيَاة اليومـية ما يمكن أن يُوصَف بأنه كـبيـر ، كـأعمـال الخيـر والسـعى على الأرزاق ، فهـذه كبيرة ، ولكن : الله أكبر .

ثم يقول تعالى :

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ (١) وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤٤﴾ ﴾

التسبيح : هو حيثية الإيمان بالله ؛ لأنك لا تؤمن بشيء في شيء إلاَّ أنْ تثق أن مَنْ آمنتَ به فوقك في ذلك الشيء ، فأنت لا تُوكِّل أحداً بعمل إلا إذا أيقنتَ أنه أقدر منك وأحكم وأعلم .

فإذا كنت قد آمنت بإله واحد ، فحيثية ذلك الإيمان أن هذا الإله الواحد فوق كل المألوهين جميعاً ، وليس لأحد شبه به ، وإن اشترك معه في مُطْلَق الصفات ، فالله غنيٌّ وأنت غني ، لكن غِنَى الله ذاتيٌّ وغِنَاك موهوب ، يمكن أنْ يُسلب منك في أي وقت .

وكذلك في صفة الوجود ، فالله تعالى موجود وأنت موجود ، لكن وجوده تعالى لا عن عدم ، بل هو وجود ذاتي ووجودك موهوب سينتهي في أي وقت .

إذن : فتسبيح الله هو حيثية الإيمان به كإله ، وإلا لو أشبهناه في شيء أو أشبهنا في شيء ما استحق أن يكون إلهاً .

والتسبيح : هو التنزيه ، وهذا ثابت لله تعالى قبل أن يوجد منْ خَلْقه مَنْ يُنزِّهه ، والحق سبحانه مُنزَّه بذاته والصفة كائنة له قبل أن

(١) قوله تعالى ﴿ وَمَن فِيهِنَّۚ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [الإسراء] . قال القرطبي في تفسيره (٥/٣٩٩٤) : « يريد الملائكة والإنس والجن . ثم عَمَّ بعد ذلك الأشياء كلها في قوله ﴿ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [الإسراء] .

يخلق الخلق ؛ لأنه خالق قبل أن يَخلق ، كما نقول : فلان شاعر ، أهو شاعر لأنه قال قصيدة ؟ أم شاعر بذاته قبل أن يقول شعراً ؟

الواقع أن الشعر موهبة ، وملَكة عنده ، ولولاها ما قال شعراً ، إذن : هو شاعر قبل أن يقول .

كذلك فصفات الكمال فى الله تعالى موجودة قبل أن يوجد الخَلْق .

لذلك فإن المتتبع لهذه المادة فى القرآن الكريم مادة (سبح) يجدها بلفظ (سُبْحان) فى أول الإسراء : ﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ .. ①﴾ [الإسراء]

ومعناها أن التنزيه ثابت لله تعالى قبل أن يخلق من ينزهه .

ثم بلفظ : ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. ①﴾ [الحديد]

بصيغة الماضى ، والتسبيح لا يكون من الإنسان فقط ، بل من السموات والأرض ، وهى خَلْق سابق للإنسان .

ثم يأتى بلفظ : ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ..①﴾ [الجمعة]

بصيغة المضارع ؛ ليدل على أن تسبيح الله ليس فى الماضى ، بل ومستمر فى المستقبل لا ينقطع . إذن : ما دام التسبيح والتنزيه ثابتاً لله تعالى قبل أن يخلق مَنْ يُنزِّهه ، وثابتاً لله من جميع مخلوقاته فى السموات والأرض ، فلا تكُنْ أيها الإنسان نشازاً فى منظومة الكون ، ولا تخرج عن هذا النشيد الكونى : ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ①﴾ [الأعلى]

وقوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء]

أى : ما من شىء ، كل ما يُقال له شىء . والشىء : هو جنس الأجناس ، فالمعنى أن كل ما فى الوجود يُسبِّح بحمده تعالى .

وقد وقف العلماء أمام هذه الآية ، وقالوا : أى تسبيح دلالة على عظمة التكوين ، وهندسة البناء ، وحكمة الخلق ، وهذا يلفتنا إلى أن الله تعالى مُنزَّه ومُتعَالٍ وقادر ، ولكنهم فهموا التسبيح على أنه تسبيح دلالة فقط ؛ لأنهم لم يسمعوا هذا التسبيح ولم يفهموه .

وقد أخرجنا الحق سبحانه وتعالى من هذه المسألة بقوله : ﴿ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء]

إذن : يوجد تسبيح دلالة فعلاً ، لكنه ليس هو المقصود ، المقصود هنا التسبيح الحقيقى كُلٌّ بلُغته(١) .

فقوله تعالى : ﴿ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء]

يدل على أنه تسبيح فوق تسبيح الدلالة الذى آمن بمقتضاها المؤمنون ، إنه تسبيح حقيقىّ ذاتىّ ينشأ بلغة كل جنس من الأجناس ، وإذا كنا لا نفقه هذا التسبيح ، فقد قال تعالى : ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ .. (٤١) ﴾ [النور]

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٣٩٩٦/٥) : « الصحيح أن الكل يسبح للأخبار الدالة على ذلك ، ولو كان ذلك التسبيح تسبيح دلالة ، فأىّ تخصيص لداود (يقصد قوله تعالى عن داود عليه السلام : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (٧٩) ﴾ [الأنبياء]) . وإنما ذلك تسبيح المقال بخلق الحياة والإنطاق بالتسبيح ، وقد نصت السنة على ما دل عليه ظاهر القرآن من تسبيح كل شىء ، فالقول به أَوْلَى . والله أعلم » . وهذا يتوافق مع ما قاله فضيلة الشيخ الشعراوى .

إذن : كل شيء فى الوجود علِم كيف يُصلّى لله ، وكيف يُسبِّح لله ، وفى القرآن آياتٌ تدل بمقالها ورمزيتها على أن كل عَالَم فى الوجود له لغة يتفاهم بها فى ذاته ، وقد يتسامى الجنس الأعلى ليفهم عن الجنس الأدنى لُغته ، فكيف نستبعد وجود هذه اللغة لمجرد أننا لا نفهمها ؟

وها هم الناس أنفسهم ولهم فى الأداء القولىّ لغة يتفاهمون بها ، ومع ذلك تختلف بينهم اللغات ، ولا يفهم بعضهم بعضاً ، فإذا ما تكلم الإنجليزى - مع أنه يتكلم بالفاظ العربى - ومع ذلك لا يفهمه ؛ لأنه ما تعلَّم هذه اللغة .

واللغة ظاهرة اجتماعية ، بمعنى أن الإنسان يحتاج للغة ؛ لأنه فى مجتمع يريد أن يتفاهم معه ليعطيه ما عنده من أفكار ، ويسمع ما عنده من أفكار فلا بُدَّ من اللغة لنقل هذه الأفكار ، ولو أن الإنسان وحده ما كان فى حاجة إلى لغة ؛ لأنه سيفعل ما يخطر بباله وتنتهى المسألة .

واللغة لا ترتبط بالدم أو الجنس أو البيئة ؛ لأنك لو أتيتَ بطفل إنجليزى مثلاً ، ووضعتَه فى بيئة عربية سيتكلم العربية ؛ لأن اللغة ظاهرة اجتماعية تعتمد على السمع والمحاكاة ؛ لذلك إذا لم تسمع الأذن لا تستطيع أن تتكلم ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ .. ⦗١٨⦘﴾ [البقرة]

فهم بُكْم لا يتكلمون ؛ لأنهم صُمٌّ لم يسمعوا شيئاً ، فإذا لم يسمع الإنسان اللفظ لا يستطيع أن يتحدثَ به ؛ لأن ما تسمعه الأذن يحكيه اللسان .

إذن ؛ بالسماع انتقلتْ اللغة ، كُلٌّ سمع من أبيه ، ومن البيئة التى يعيش فيها ، فإذا ما سلسلْتَ هذه المسألة ستصل إلى آدم - عليه السلام - وهنا يأتى السؤال : وممَّنْ سمع آدم اللغة التى تكلم بها ؟

وقد حلَّ لنا القرآن الكريم هذه القضية فى قوله تعالى : ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا .. (٣١)﴾ [البقرة]

وأكثر من ذلك ، فقد يتكلم العربى بنفس لغتك ولا تفهم عنه ما يقول ، واللغة هى اللغة ، كما حدث مع أبى علقمة النحوى ، وكان يتقعَّر فى كلامه ويأتى بألفاظ شاذة غير مشتهرة ، وقد أتعب بذلك مَنْ حوله ، وخاصة غلامه الذى ضاق به ذَرْعاً لكثرة ما سمع منه من هذا التقعر .

ويُروَى أنه فى ذات ليلة قال أبو علقمة لغلامه : (أصقَعَت[1] العَتَارِيفُ) ؟ فردَّ عليه الغلام قائلاً : (زقْفَيلَم) . وكانت المرة الأولى التى يستفهم فيها أبو علقمة عن كلمة ، فقال : يا بنى وما (زقْفَيلَم) ؟ قال : وما (صقعت العتاريف) ؟ قال : أردتُ : أصاحت الديكة ؟ فقال الغلام : وأنا أردتُ لم تَصِحْ .

إذن : فكيف نستبعد أننا لا نعلم لغة المخلوقات الأخرى من حيوان ونبات وجماد ؟ ألم يكْفنا ما أخبرنا الله به من وجود لغة لجميع المخلوقات ، وإنْ كنا لا نفهمها ؛ لأننا نعتقد أن اللغة هى النطق باللسان فقط ، ولكن اللغة أوسع من ذلك .

فهناك - مثلاً - لغة الإشارة ، ولغة النظرات ، ولغة التلغراف .

---

(١) صَقْع الديك : صوته . وقد صقع الديك : صاح . والعُتْرفان : الديك . [لسان العرب - مادة : صقع ، عترف] فمعنى : أصقعت العتاريف : أى : أصاحت الديكة .

إذن : اللغة ليست اللسان فقط ، بل هى استعداد لاصطلاح يُفْهم ويُتعارف عليه ، فالخادم مثلاً يكفى أن ينظرَ إليه سيِّده نظرة يفهم منها ما يريد ، فهذه النظرة لَوْنٌ من ألوان الأداء .

والآن بدأنا نسمع عن قواميس يُسجَّل بها لغات بعض الحيوانات لمعرفة ما تقول .

وقد أعطانا الحق تبارك وتعالى إشارات تدل على أن لكل عَالَم لغة يتفاهم بها ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ .. (٧٩)﴾ [الأنبياء]

فالجبال تُسبِّح مع داود ، وتُسبِّح مع غيره ، ولكن المراد هنا أنها تُسبِّح معه ويوافق تسبيحها تسبيحه ، وكأنهما فى أنشودة جماعية منسجمة . إذن : فلا بُدَّ أن داود عليه السلام قد فَهِم عنها وفهمتْ عنه .

وكذلك النملة التى تكلمتْ أمام سليمان عليه السلام ففهم كلامها ، وتبسَّم ضاحكاً من قولها . وقد علَّمه الله منطقَ الطير . إذن : لكل جنس من الأجناس منطق يُسبِّح الله به ، ولكن لا نفقه هذا التسبيح ؛ لأنه تسبيح بلغة مُؤدِّية مُعبِّرة يتفاهم بها مَنْ عرف التواضع عليها .

وقد جعل الحق سبحانه وتعالى تنزيهه مطلقاً ينقاد له الجميع ، حتى الكافر ينقاد لتنزيه الله قَهْراً عنه ، مع أن لديه ملكةَ الاختيار بين الكفر أو الإيمان ، لكن أراد الحق سبحانه أن يكون تنزيهه مُطْلقاً من الجماد والنبات والحيوان ، ومن المؤمن والكافر . كيف ذلك ؟

أطلق الحق سبحانه على ذاته لفظ الجلالة (الله) فهو علَم على

واجب الوجود ، ثم تحدّى الكافرين أنْ يُسمُّوا أحداً بهذا الاسم ، فقال : ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ ﴾ [مريم]

ومع ما عندهم من إلْف بالمخالفة وعناد بالإلحاد ، مع ذلك لم يجرؤ أحد منهم أنْ يُسمِّيَ ابناً له بهذا الاسم ، ومعلوم أن التسمية أمر اختياريّ يطرأ على الجميع .

إذن : فهذا تنزيه لله تعالى ، حتى من الكافر رَغْماً عنه ، وهو دليل على عظمته سبحانه وجلاله ، هذه العظمة وهذا الجلال الذى لم يجرؤ حتى الكافر على التشبُّه به ؛ ذلك لأنهم فى كفرهم غير مقتنعين بالكفر ، ويخافون بطش الله وانتقامه إنْ أقدموا على هذا العمل ، لذلك لا يجرؤ أحد منهم أنْ يُجرِّب فى نفسه مثل هذه التسمية .

وفى مجال العبادات ، فقد اختار الحق سبحانه لنفسه عبادة لا يشاركه فيها أحد ، ولا يقدمها أحد لغيره تعالى ؛ لأن الناس كثيراً ما يتقربون لأمثالهم من البشر بأعمال أشبه ما تكون بعبادة الله تعالى ، فمنهم مَنْ ينحنى خضوعاً لغيره ؛ كأنه راكع أو ساجد ، ومنهم مَنْ يمدح جباراً بأنه لا مثيلَ له ، وتصل به المبالغة إلى جَعْله إلهاً فى الأرض ، ومنهم مَنْ يسجدُ للشمس كما فعل أهل سبأ ، وأخبر الهدهد عنهم بقوله :

﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [النمل]

ألسْنا نرى إنساناً يتقرَّب لأحد الحكام ، بأن ينفق فيما يحبه هذا الحاكم ، وكأنه يُخرِج زكاة ماله ؟ ألسْنا نرى أحدهم يذهب كل يوم

إلى قصر سيده ، ويُوقِّع في سجل التشريفات باسمه ليقدم بذلك فروض الولاء والطاعة ؟

إذن : فالإيمان بالوحدانية في شيء متميز وارد عند الناس ، والخضوع الزائد بالسجود أو بالركوع أو بالكلام وارد عند الناس .

لذلك تفرَّد الحق سبحانه بفريضة الصوم ، وجعلها خالصة له سبحانه ، لا يتقرب بها أحد لأحد ، وهل رأيت إنساناً يتقرَّب لآخر بصوم ؟ فانظر إلى هذه السُّبْحانية وهذا التنزيه في ذاته سبحانه ، فلا يجرؤ أحد أنْ يتسمَّى باسمه .

وفي العبادة لا يُصَام لأحد غيره تعالى ، فلو تصوَّرنا أن يقول واحد للآخر : أنا سأتقرَّب إليك بصوم هذا اليوم أو هذا الشهر ، إذن : أنت تريد منه أن يجلس بجوارك يحرسك ويراعي صومك ، فكأنك تريد له العنت والمشقة من حيث تريد أنت أنْ تتقرَّب إليه .

لذلك يقول الحق سبحانه في الحديث القدسي : « كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به »[1] .

يعني من الممكن أن يتقرب بأيِّ ركن من أركان الإسلام لغيري ، إلا الصوم ، فلا يجرؤ أحد أنْ يتطوَّع به أو يتقرب به لأحد .

إذن : فالسُّبحانية هي الدليل السائد الشامل الجامع لكل الخَلْق ؛ لذلك نقول للكافر : أيها الكافر لقد تأبَّيْتَ على الإيمان بالله ،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١٩٠٤) ، وكذا مسلم في صحيحه (٨٠٦/٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وهو حديث قدسي عن رب العزة سبحانه .

وللعاصى : لقد تأبيتَ على أوامر الله ، وما دُمْتُم قد تأبيتم على الله ، وألفتم هذا التأبِّى وهذا التمرد ، فلماذا لا تتأبون على المرض إنْ أصابكم ، وعلى الموت إنْ طرق بابكم ؟

لماذا لا تتمرد على ملك الموت وتقول له : لن أموت اليوم ؟! إنها قاهرية الحق سبحانه وتعالى حتى على الكافر ، فلا يستطيع أحد أن يخرج عليها أو يتمرد .

وكذلك العاصى حينما ينحرف عن الجادّة ، وتمتد يده إلى مال غيره بالسرقة أو الاختلاس أو التعدِّى على المال العام ، فإن الحق سبحانه يفتح عليه أبواباً للإنفاق تبتلع ما جمع من الحرام ، وربما أخذت فى طريقها الحلال أيضاً ، وصدق رسول الله ﷺ حين قال :

« من جمع مالاً من مهاوش أذهبه الله فى نهابر »[1] .

فالتسبيح إذن لغة الكون كله ، منه ما نفهمه ، ومنه ما لا نفهمه ، إلا مَنْ أطلعه الله عليه ، فإذا مَنَّ الله على أحد وعلّمه لغة الطير أو الحيوان أو النبات أو الجماد ، فهمها وفقه عنها ، كما أنعم بهذه النعمة على داود وسليمان عليهما السلام .

ويقول سليمان ـ عليه السلام ـ شاكراً هذه النعمة : ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي[2] أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ .. ⑲ ﴾ [النمل] فقَوْل الحق سبحانه : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ .. ㊹ ﴾[الإسراء]

---

(١) أورده العجلونى فى كشف الخفاء (٣١٣/٢) وعزاه للقضاعى عن أبى سلمة الحمصى مرفوعاً ، وأبو سلمة ضعيف ولا صحبة له . قال التقى السبكى : لا يصح .

(٢) أى : ألهمنى شكرك وادفعنى إليه وحبِّبه إلىّ . [القاموس القويم ٢/ ٣٣٤] .

يجب على العلماء أنْ ينقلوها من خاطر الدلالة إلى خاطر المقالة أيضاً ، ولكنها مقالة ، ولكنها مقالة بلغة يفهمها أصحابها إذا شاء الله لهم ذلك .

ثم يُذيِّل الحق سبحانه هذه الآية بقوله : ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء]

لأن الإنسانَ كثيراً ما يغفل الاستدلال بظواهر الكون وآياته دلالة الحال ، فيقف على قدرة الله وبديع صُنْعه ، وكذلك كثيراً ما يغفل عن تسبيح الله تسبيح المقالة ؛ لذلك أخبر سبحانه أنه حليمٌ لا يعاجل الغافلين بالعقوبة ، وغفور لمن تاب وأناب .

وهذا من رحمته سبحانه بعباده ، فلولا أنْ يتداركَ الله العباد بهذه الرحمة لكان الإنسان سيد الكون أقلّ حظاً من الحيوان ، ويكفى أن تتدبر قوله تعالى عن تسبيح المخلوقات له سبحانه :

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ .. ﴿١٨﴾﴾ [الحج]

فها هى جميع الأجناس من جماد ونبات وحيوان تسجد لله لا يتخلف منها شىء ، فهى تسجد وتُسبِّح بالإجماع ، ولم ينقسم الأمر إلا فى الإنسان السيِّد المكرَّم ، ولكن لماذا الإنسان بالذات هو الذى يشذُّ عن منظومة التسبيح فى الكون ؟

نقول : لأنه المخلوق الوحيد الذى ميَّزَهُ الله بالاختيار ، وجعل له الحرية فى أنْ يفعل أو لا يفعل ، أما باقى المخلوقات فهى مُسخَّرة مقهورة ، فإنْ قال قائل : لماذا لم يجعل الحق سبحانه وتعالى

الإنسان أيضاً مقهوراً كباقي المخلوقات ؟

لقد جعل الله تعالى في الإنسان الاختيار لحكمة عالية ، فالقهر يُثبتُ للحق سبحانه صفة القدرة على مخلوقه ، فإذا قهره على شيء لا يشذ ولا يتخلف ، ولكنه لا يثبت صفة المحبوبية لله تعالى .

أما الاختيار فيثبت المحبوبية لله ؛ لأنه خلقك مختاراً تؤمن أو تكفر ، ومع ذلك اخترْتَ الإيمان حُباً في الله تعالى ، وطاعة وخضوعاً ، فأثبتَّ بذلك صفة المحبوبية .

وإياك أن تظن أن مَنْ يَعْصى الله يعصيه قهراً عن الله ، بل بما ركَّب فيه من الاختيار ، وقد يقول قائل : وما ذنب الإنسان أن يكون مختاراً من بين جميع المخلوقات ؟

لو حققتَ هذه القضية منطقياً وفلسفياً لوجدتَ الكون كله كان مختاراً ، وليس الإنسان فقط ، لكن اختارت جميع المخلوقات أنْ تُسلِّم الأمر لله ، وفضَّلتْ أن تكون مقهورة مسخرة من البداية ، أما الإنسان ففضَّل الاختيار ، وقال : سأعمل بحرص ، وسأحمل الأمانة بإخلاص ، وهذا واضح في قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢) ﴾ [الأحزاب]

وفي رَفْض هذه المخلوقات لتحمُّل الأمانة والاختيار دليل على العلم الواسع ؛ لأنه يوجد فَرْق كبير بين قبول الأمانة وقت التحمُّل ووقت الأداء . فقد تتحمل الأمانة وأنت واثق من أدائها ، لكن يطرأ عليك وقت الأداء مَا يحول بينك وبين أداء الأمانة .